

من بين أولئك الذين توصلوا إلى السلطة عن طريق الشراسة.

بما أنه يمكن للمواطن العادي أن يصبح أميراً بطريقتين لا يمكننا نسبهما كلياً للقدر أو للفضيلة، يبدو لي من غير المناسب الابتعاد عن التحدّث عنهما. بل إنني أرى على العكس بأنّه يمكننا الإسهاب في إحداها وهي التي نتحدث عن الجمهوريات، أكثر مما سنتحدث عن الثانية.

الطريقة الأولى هي الوصول إلى السلطة عن طريق الشراسة والجناية، أمّا الطريقة الثانية فتتم باختيار المواطنين العاديين لواحد من بينهم ليصبح الأمير.

بالنسبة للطريقة الأولى سنوضحها من خلال مثالين الأول قديم والآخر حديث... ولا نريد أن ندخل في مزايا هذا النمط بطريقة أخرى لأنني أجد هذين المثالين كافيين لمن يريد إتباع هذه الطريقة: "أجاتوكل" من "صقليا" من أصل ليس فقط عادي بل متدنّي جداً وحقير، وُلِدَ من صانع فخّار وعاش حياةً فاسقةً بكل مراحلها. تدرّج في الجندیّة من منصب إلى آخر إلى أن أصبح الحاكم الشرعي لـ "سيراكوز" وحين وصل إلى هذه المرتبة... صمم على أن يصبح أميراً وأن يحصل بالعنف ودون امتنان للآخرين على ما مُنح له بملى الإرادة... لذلك تواطأ مع "هاميلكار" من "قرطاج" ليحقق هذا الهدف. فساعد هذا الأخير وأرسل الجيوش لمساندته في "صقليا".

و ذات صباح جمع الشعب ومجلس شيوخ "سيراكوز" كما لو أنّه يريد إطلاعهم على أمور تخصّ الجمهوريّة، ثم أمر بإشارة منه بالتقدّم... فقتل جنوده كل الشيوخ والأغنياء من الشعب. وحصل بموتهم على ولاية تلك المدينة دون أية معارضة أهليّة.

لقد ظهرت المميزات الفكرية والجسدية التي تدل على مستواه وأصله من خلال شراسة جرائمه.

استطاع "أجاتوكل" الدفاع عن المدينة ضد "القرطاجيين" الذين هاجموا وحاصروه مرتين. بل علاوة على ذلك فقد ترك عدداً من رجاله في مقاومة الحصار، بينما ذهب هو والآخرين للقتال في "إفريقيا"، واستطاع تحرير

"سيراكوز" بوقت قصير... وقاد "القرطاجيين" إلى وضع حرج فاضطروا للمصالحة معه وللاكتفاء بامتلاك "أفريقيا" ولتركوا "صقليا" له.

من يلاحظ حياة وتصرفات هذا الرجل لا يرى فيها ما يُنسب إلى لعبة القدر ولو قليلاً لأنّه لم يكن لأحد فضلٌ عليه، فقد كَوّن ذاته بالتدريج من خلال ترقّعه في مراتب الجندية التي اكتسبها بآلاف الصعوبات والمخاطر، وبقدر كبير من الجرأة والشجاعة.

لكن لا يمكننا أن نسمي أي شيء من هذا فضيلة، فقتل مواطنيه وخيانة أصدقائه وقلة إيمانه وعدم رحمته وخلوّه من الدين كلّها طرق بعيدة عن الفضيلة.. يُمكن أن توصل إلى السلطة، لكنها لا تصنع المجد.

فإذا نظرنا إلى تميّزه عندما واجه وأزاح الأخطار، وإلى عظمة عقله عندما عانى وانتصر على المحن... لا نجد سبباً لنحكم بأنّه أدنى من أي قائد متميّز جداً، إلا أنّ... قسوته الفظيعة وعدم إنسانيته.. بالرغم من أن الدراسة اللامتناهية لا تحسب على من سيصبح مشهوراً بين الرجال المتفوقين - تمنعنا من إسناد ما حصل عليه إلى القدر والفضيلة.

المثال الحديث الذي قلنا أننا سنورده هو "ليفروتو دو فيرمو" من عهد حكم "ألكسندر السادس"... كان "ليفروتو" يعيش منذ عدّة سنوات دون أب... فقد تولّى تربيته أحد أخواله المدعو "جيوفاني فاغلياني"، وعندما أصبح في ريعان الشباب مُنح للخدمة عند "باولو فيتولي" لينشأ على النظام العسكري. ومن هنا بدأ يتدرّج في مراتب الميليشيا (الجندية) إلى أن وصل إلى رتبة ممتازة.

وحين مات "باولو" خدم تحت سلطة أخيه "فيتولوزو" وخلال وقت قصير جداً استطاع أن يصبح الرجل الأول في ميليشيته، لأنّه كان ذكياً وقوياً من الناحيتين البدنية والذهنية، ولكنه وضعه تحت قيادة الغير بدا له عبودي لذلك فكّر في احتلال "فيرمو" بمساعدة "فيتولي" وبعض مواطني "فيرمو" وقد كانت عبوديته أتصل عليه مما كانت حريتهم ثمينة بالنسبة لهم.

كتب "ليفروتو" إلى خاله "جيوفاني" الذي كان منذ زمن طويل خارج منزله، وكان هذا الأول يريد المجيء لرؤيتهم أي المدينة وخاله، ولتقديم إرثه لديهم. وبما أنّه لم يكن قد أتعّب نفسه إلا لاكتساب إرثه من الشرف ولأنّه أراد أن يرى مواطنيه أنّه لم يُضع الوقت هباءً... طلب أن يكون وصوله مكرّماً بمئة فارس من أصدقائه وخدمه.... ورجا خاله أن يُنظم

الأمور لكي يُستقبل بالترحيب والتبجيل من سكان "فيرمو" وهذا الشرف لم يكن ضرورياً له فقط بل أيضاً لخاله لأنه معلّمه.

بالنتيجة... نقّذ "جيوفاني" هذا الواجب اتجاه ابن أخته.. وأقام هذا الأخير في منزل الخال "جيوفاني" بعد أن استقبل استقبالاً مشرفاً. وفي هذا المنزل قضى عدّة أيام مُتفرّغاً خلالها للتخطيط السري لما كان ضرورياً لمستقبله الآثم، ثم أقام وليمة مهيبة جداً دعا إليها "جيوفاني فاغلياني" وكل الرجال المهمين في "فيرمو". وبعد أن تناولوا الطعام وقاموا بكل التسلّيات الأخرى التي تُستخدم في الولائم المشابهة طرح "ليفورتو" مُتعمداً بعض المواضيع المتعلقة بأمور خطيرة... فتحدّث عن عظمة "ألكسندر" وابنه "سيزار"، وعن مشاريعهما. وكان جيوفاني والآخرين يناقشونه في هذه المواضيع، وعندما نهض فجأةً ليقول بأن عليهم أن يفكروا بهذه الأمور ويناقشوها في مكان أكثر سرّيّة، ثم انسحب إلى غرفة تبعه إليها الجميع... وما إن جلسوا في أماكنهم حتى خرج جنود من أماكن سرّيّة وقاموا بقتل جيوفاني والآخرين جميعاً.

بعد هذه المذبحة... أمّطى "ليفورتو" صهوة حصانه انطلق مع جنوده إلى أن وصل إلى القصر حيث حاصر هناك المجلس الموقر ولم يعارضه أحد هناك من شدّة الخوف في تشكيل حكومة جديدة يكون هو الأمير فيها.

وبما أنّه قد تخلّص من كل من يمكن أن يؤذيه أو أن يكون مُستاءً، فقد كان مُرتاحاً في توطيد سلطته بأنظمة مدنيّة وعسكريّة جديدة... بحيث أنّه في ظرف عام من السلطة أصبح مصدر خوف لكل جيرانه، وبقي في أمان في مدينة "فيرمو". ولو لم يستسلم لخدمه "سيزار بورجيا" في "سينجاليا" مع آل "أورسيني" و"الفيتولي"، لكان من الصعب انتزاع "فيرمو" منه كما حدث مع "أجاتوكل". لقد سقط "ليفورتو" بعد عام من قتله لمُربيّه وخنقه لـ "فيتولوزو" معلّمه في الفضائل والشراسة.

ومن الممكن أن يشك المرء في إمكانية أن يعيش "أجاتوكل" أو أي شخص مثله بأمان في وطنه وقتاً طويلاً وأن يدافع عن نفسه ضد الأعداء الخارجيين، وألا يكون هدفاً لمؤامرة من مواطنيه بعدما اقترب من عنف وخيانة لا نهاية لهما. فإن الكثيريني لم يستطيعوا الحفاظ على دولهم بالقسوة حتّى في وقت السلم فكيف إذا تكلمنا عن زمن الاضطرابات في الحرب... في الواقع، إنّ هذا الموضوع يتعلّق بسوء أو حسن استخدام القسوة. وبالحديث عن حسن الاستخدام يمكن استخدام الشر مثلاً يمكن استخدام

الخير.. لكن بشرط أن يكون فجأةً وفقط عند الاضطرار له للحفاظ على الأمن... لكن دون أن تستمر فيه... فنحن نلجأ إليه عندما يكون ذو فائدة كبيرة للشعب، لكن إذا نَمى وكبر بدلاً من أن يختفي مع الزمن، بالرغم من أنه في البداية كان قليل العدد.. فهذا يعد سوء استخدام له.

إن الذين يستخدمون الشر بالطريقة الأولى يستطيعون بعون الله والإنسان أن يحافظوا على أنفسهم في دولهم كما فعل "أجاتوكل"، أمّا الآخرون فمن المستحيل إطالة فترة حكمهم لأنهم يستخدمون الطريقة الثانية^(١).

إذاً، عند احتلال دولة ما على المحتل أن يُناقش كل أنواع العنف الضروري له وأن يتدرب على تطبيقها دفعة واحدة. لكي لا يضطر إلى تكرارها كل يوم.. وليتمكن دون إدخال أشياء جديدة عليها من بعث الأمن في نفوس الرعيّة ومن كسبهم بإحساناته. ومن يتصرّف بشكل آخر إمّا بدافع الخجل أو سوء التصرف سيضطر لحمل السكين في يده دائماً ولن يستطيع أبداً الاعتماد على رعاياه، وهم بالمقابل لن يطمئنوا له أبداً بسبب محاولاته المتلاحقة والمستمرة للاعتداء عليهم.

لذلك يجب أن تكون محاولات الاعتداء هذه مصوّبة كلّها دفعة واحدة، لأنه كلما كان وقت تذوّقها قليلاً تكون الإساءة أقل. أمّا الخير والإحسان فيجب أن يتم رويداً رويداً ليتذوقه الشعب بشكل أفضل.

وعلى الأمير أن يعيش مع رعيّته فوق كل اعتبار.. وألاّ يغيّر سلوكه لأي حادث خيراً كان أم شراً، لأن المآزق والمحن تأتي في أوقات مُختلفة وحينها لن يكون الوقت لصالحه ليقوم بالشر. أمّا الخير الذي عمله فلن يُفيده في شيء لأنهم سيعتبرون أنّه كان مُجبراً على ذلك ولن يحفظوا له أي عرفان بالجميل.

(١) - إن الجوهر هو أن يكون هناك استخدام معيّن ومدرس للقسوة.